ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ ﴾

وهذا انتقال لحكم جديد ، فبعد أن تكلم الحق فيما أحله لنا وقال سبحانه :

﴿ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَـٰمِ ﴾

( من الآية ١ سورة المائدة )

وبعد أن تكلم الحق سبحانه فيما حرم علينا من الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكى وذبح وحرّم ما ذبح للأصنام وما استقسم بالأزلام وكذلك الخمر والميسر ، أراد أن يعطينا محرمات من نوع خاص ، وحتى نعرف هذه المحرمات لا بد لنا أن نعرف أن هناك أشياء محرمة فى كل زمان وكل مكان ، كالخمر والميسر والزنا وغير ذلك من النواهى الثابتة ، سواء أكانت عبادة أصنام أم أزلام أم غير ذلك من أكل الميتة والدم ولحم الخنزير ، وهناك محرمات فى أزمنة خاصة ، أو فى أمكنة خاصة . والفعل ، أى فعل ، لا بد له من زمن ولا بد له من مكان .

نحن مأمورون بالصلاة فى زمانها فى أى مكان طاهر وصالح للصلاة فيه ، وكذلك الصوم يتحكم فيه الزمان ، أما الحج فالذى يتحكم فيه هو الزمان والمكان . وأما العمرة فالذى يتحكم فيها هو المكان ؛ لأن الإنسان يستطيع أن يعتمر فى أى زمان ـ غالبا ـ ويتكلم سبحانه هنا عن نهى فى مكان خاص وفى زمان خاص ، فالصيد ليس محرماً إلا فى حالة أن يكون الإنسان حُرُماً .

ونعلم أن كلمة «حُرُم» هي جمع «حَرَام»، والحرام إما أن يكون الإنسان فى المكان الذى يبدأ فيه بالتحريم. ومثال ذلك منطقة رابغ التى يبدأ عندها الإحرام بالنسبة لسكان مصر، فإن وصلت إلى هذا المكان وبدأت فى عمل من أعمال الحج أو العمرة فأول عمل هو الإحرام. ومن لحظة الإحرام حتى ولو أحرمت من بلدك أو بيتك لا يحل لك الصيد. و«الحرم» أيضاً هو وصف للمكان حتى وإن لم يكن الإنسان حاجاً، فالصيد محرم فى الحرم، والحرم له حدود بينها الشرع، فالصيد فيه حرام على المُحْرِم وغير المحْرِم. ونعلم أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم قد جعل الحق لها الأرض كلها مسجداً وطهوراً.

وعلى ذلك فأى مكان يصلح للصلاة، ويصلح أن نقرأ فيه العلم، ويصلح أن نقيم عليه مصنعاً ويصلح أن نزرعه. إذن فأى أرض تصلح أن تكون مسجداً لأنها مكان للسجود. ولكن المسجد بالمعنى الاصطلاحى هو المكان المخصص للصلاة. أما المسجد الحرام فمركزه الكعبة وحولها الطواف وحول ذلك جدران الحرم. ويقع المسجد الحرام فى دائرة الحرم، والتى تبدأ من التنعيم والجعرانة والحديبية والجحفة وغيرها، هذه حدود الحرم. فالإنسان إذا ما جاء إلى ميقات الحج عند رابغ مثلاً فهو لا يصطاد؛ لأنه أصبح فى دائرة الحرم، فالصيد محرم عليه حتى ولو لم يكن حاجاً أو معتمرا.

والحج - كما نعلم - هو رحلة فرضها الله مرة واحدة فى العمر يخرج إليها المسلم الذى يحيا فى كل مكان مع نعمة المنعم. وعندما يخرج المسلم إلى الحج فهو يتحلل من كل النعم التى تصنع له التمييز ليستوى مع كل خلق الله. وأول سمة مميزة للإنسان هى الملابس، لذلك يخلع المسلمون ملابسهم ويرتدون لباساً موحداً يتساوون فيه. وحين يترك المسلم النعمة كلها فذلك لأنه ذاهب إلى المُنعِم.

ومن بعد ذلك يريد الحق أن يؤدبنا تأديباً إيمانياً مع الوجود كله. ويصفى الله فى الحج هذه المسألة كلها، فالكل سواء فى ملابس تكاد تكون واحدة، وكلهم شُعْث غُبر، وكلهم يقولون: «لبيك اللهم لبيك». هكذا تتم تصفية التفاوت فى الإنسان بالإحرام.

ومن بعد ذلك ننظر إلى الجنس الأدنى وهو الحيوان ، ويعلمنا الحق الأدب مع هذا الجنس فيأتى بتحريم صيده . ويعلمنا الأدب مع الزرع الذى تحت الحيوان فيمنع المسلم من قطع شجر الحرم . وهكذا تصفى كل هذه المسألة ، وتصبح العبودية مستطرقة فى الجميع .

وتزول فى الحج كل الألقاب والمقادير المتباينة من فور اتجاههم إلى الحج ، وحول الكعبة يرى الخفيرُ الوزيرَ وهو يبكى ، ويشعر الجميع أن الكل سواء ، والحق يقول :

﴿ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾

(من الآية ٩٧ سورة آل عمران)

فالحيوان يأمن وكذلك النبات ، هذا ما أمر به الحق فى دائرة الحرم ؛ لأن ذلك تدريب للإنسان على أن يخرج من النعمة إلى المنعم . ومن بعد ذلك يدخل إلى المسجد ويطوف حول الكعبة . ونجد الإنسان ـ سيد الوجود ـ يقف من كل ما يخدمه فى الوجود موقفاً مختلفاً ، فالحيوان يأخذ كرامته وكذلك النبات ، وكذلك الجماد يأخذ أيضاً كرامته ، فمن عند الحجر الأسود يبدأ الطواف سبعة أشواط .

فى الحج ينفض الإنسان أى طغيان عن نفسه ويتساوى مع كل الناس ، ينفض طغيانه أمام الجنس الأدنى وهو الحيوان فحرّم عليه صيده ـ ونعلم أن الحيوان يغذى الإنسان ـ وينفض أيضا طغيانه مع النبات ـ والنبات يغذى الإنسان ـ فحرّم قطعه . وينفض الحق كبرياء الإنسان أمام الجماد ـ وهو أحط الأجناس ـ فأمر الحق الإنسان أن يستلم الحجر الأسود أو أن يقبله ، وإن لم يستطع من الزحام فعليه الإشارة للحجر ، ومن لم يستطع استلام الحجر أو تقبيله فقد يخيل إليه أن حجه لم يقبل وذلك زيادة منه فى التعلق بالمناسك والاحتياط فى أدائها .

كل ذلك حتى يحقق الله سبحانه وتعالى استطراق العبودية ، ودائماً نجد من يتساءل : وكيف نقبل الحجر على الرغم من أن الله قد نهانا عن الوثنية وعبادة الأصنام ؟ ونقول : إن الحجرية ليست لها قيمة فى هذا المجال ، ولكن رب الإنسان والحيوان والنبات والحجر هو الذى أمرنا بذلك ، بدليل أننا نرجم حجراً آخر هو رمز

إبليس ، والعبد فى أثناء أداء المشاعر - إنما ينتقل من مراد نفسه إلى مراد ربه ، فيقبل ويعظم حجراً ويرجم حجراً آخر ، وهكذا صفيت العبودية بالنسبة للناس فاستطرقوا ، وصُفيت العبودية بالنسبة للحيوان والنبات والجماد .

ويلفتنا سيدنا عمر رضى الله عنه فيقول للحجر الأسود : « أنا أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك » .

كأن سيدنا عمر رضى الله عنه يعلمنا حتى لا يقول أحد : إنها وثنية ، فالوثنية أن تعبد حجراً بمرادك ، أما الحجر الأسود فنحن نعظمه بمراد الله .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ ﴾

( سورة المائدة )

ما الفرق بين ما تناله الأيدى وما تناله الرماح ؟ . ما تناله الأيدى هو صغار الأفراخ والأشياء السهلة اليسيرة ، أما ما تناله الرماح فهو ما تصطاده بجهد وبالرمح وحسن تصويبه . وقال الحق : « ولنبلوكم » لأن هناك فارقاً بين أن يلح الإنسان على المعصية فيفعلها ، وبين أن يصل إلى منزلة لا يلح فيها على معصية ، بل قد تقع عليه المعصية ، وإن وقعت عليه المعصية فهو لا يرتكبها .

كأن الحق يبتلينا مادمنا لا نلح على المعصية ، ويريد أن يرى ماذا سيكون التصرف منا إن جاءت المعصية إلينا فهل نفعلها أو لا ؟ . فإن كان الإيمان قوياً فلا أحد يقرب المعصية . ولذلك يبتليكم الله بشىء من الصيد المحرّم عليكم بأن يجعله فى متناول أيديكم .

حدث ذلك فى الحديبية لقد كاد الصيد يضع نفسه بين أيدى المؤمنين ولم يقربوه وكان هذا اختباراً . ونعلم أن الابتلاء غير مذموم فى ذاته ، إنما المذموم فيه الغاية منه ؛ لأن الابتلاء اختبار ، وقد ينجح إنسان ، وقد يفشل إنسان آخر . وكأن الحق قد ابتلى المؤمنين بأن جعل الصيد يتكاثر أمامهم حتى يقوى عود الإيمان فى قلب المؤمن فلا يتهافت على المعصية وتتكون لديه المناعة وذلك . « ليعلم الله من يخافه بالغيب »

وسبحانه وتعالى العالم بكل شيء قبل أن يحدث . لكن هناك فرق بين علم وعلم ، إن علم الله أزلي لا يتخلف ، ولكن هذا العلم ليس حجة على الناس ؛ لأن الحجة على الناس هو ما يقع منهم فعلاً ، ولذلك كان الابتلاء .

وأسوق هذا المثل - ولله المثل الأعلى - إن الوالد قد ينظر إلى أحد أبنائه ويقول : إنه يلعب طول السنة ومن الأفضل ألا ندخله الامتحان ؛ لأنه سوف يرسب . ولا يدخل الابن الامتحان ، ولكن الوقاحة تصل به إلى الحد الذى يقول فيه : لو كنت دخلت الامتحان لكنت من الناجحين.ولو كان والده أدخله الامتحان ورسب ، لكان هذا الرسوب حجة عليه .

إذن فعلم الحق لا يلزمنا الحجة ، إنما العلم الواقعى هو الذى يلزمنا بها .

وقد حدثت هذه الابتلاءات فى النبوّات كثيراً . ومثال ذلك ابتلاء الحق لليهود بتحريم الصيد يوم السبت ، فكانت الحيتان تأتى فى هذا اليوم مشرعة وكأنها تلح عليهم أن يصطادوها . وفى الأيام الأخرى لا تأتى الحيتان ، فيحتالون لعصيان الأمر باختراع نوع من الشباك السلكية تدخل فيها الحيتان ، وتظل حية ومحبوسة فيها إلى يوم الأحد فيأخذونها . وتكون حيلتهم هى دليل الغباء منهم ؛ لأن الصيد قد تم بالنية والعمل والاستعداد المسبق . وكان الابتلاء فى الإسلام بشيء من الصيد . « ليعلم الله من يخافه بالغيب فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم » . وقد علمنا من قبل قوله الحق :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾

( من الآية ٢٢٩ سورة البقرة )

فإن كانت المسائل مأمورات فعلينا أن ننفذها . وإن كانت نواهى فيجب ألا نقربها حتى لا نقع فيها فتكون حجة علينا ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ( الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه . ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله فى أرضه محارمه )[1] .

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه عن النعمان بن بشير .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ٩٥ ﴾

أى لا تقتلوا الصيد إن كنتم قد أحرمتم بالحج أو بالعمرة أو بهما معا ، وإن لم تحرموا فالصيد محرّم أيضاً فى حدود منطقة الحرم . وسبحانه قد جعل الحرم زمانا والحرم مكاناً . وهو فَىْءٌ يلجأ إليه الناس من غرور عزة قوم على حساب ذلة قوم آخرين . وقديماً كان يحارب بعضهم بعضا ، ولذلك جعل الحق أربعة أشهر حرماً فى الزمان ، أى لا قتال فيها ، وذلك حتى يستريح المتعب من الحرب ، ويستريح من يخاف على عزته ، أو يذوق فيها الجميع لذة السلام والأمن ، وقد يستمرون فى ذلك الاستمتاع بالسلام والأمان . وكذلك جعل الحق الحرم أيضاً مكاناً آمناً ، لا يتعرض فيه أحد لأحد . وكان الإنسان يقابل فى الحرم قاتل أبيه فلا يتعرض له ، كل ذلك ليحمى عزة الناس أن تنكسر أمام غيرهم .

ومثال ذلك طرفان كلاهما على خلاف مع الآخر ، وكل منهما يرغب فى الصلح مع الطرف الآخر . وهنا يتدخل أى إنسان من الخارج فينجح ؛ لأن الطرفين ميالان للصلح . وكل منهما يريد إنهاء الحرب ولكن تأخذه العزة بالإثم وتستولى عليه الحمية ويأنف أن يبدأ خصمه بطلب الصلح .

وقد أراد الحق أن تكون هناك فى الأشهر الحرم فرصة للائتلاف والصلح وذلك بأن يلجأ الناس إلى البيت الحرام حتى تنفض البشرية عن نفسها البغضاء وحتى يرتاح البشر من القتال، فتصدر الأحكام فى رويّة واتزان وهدوء أعصاب.

ويقول الحق جل وعلا:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ ﴾

(سورة المائدة)

ولا يعتبر الشىء صيداً إلا إذا كان مما يؤكل. أما إذا كان الشىء المصاد لا يؤكل كالسبع وغيره فقد قال بعض العلماء: لا يمنع ولا يحرم ولكننا نقول: إن الصيد هو كل ما يصاد سواء ليؤكل أو حتى غير مأكول، وذلك لنعلم أنفسنا وجوارحنا وأعضاءنا الأدب ونحن حرم. ومعنى «حُرُم» هو أن نكون محرمين أو فى الحرم، والحرم له حدود معروفة. وداخل الحرم ممنوع على الإنسان أن يصطاد أى شىء من لحظة بلوغه ميقات الحج و العمرة.

إذن فحيز الصيد محدود بالنسبة لكل من دخل الحرم المكّى الشريف سواء أكان محرماً أم لا. وحيز الصيد بالنسبة لمن أراد الحج أو العمرة هو أكثر رقعة واتساعا، ذلك أن التحريم يبدأ من حين الاحرام بالحج أو بالعمرة أو بهما. ولكن ماذا يكون الحكم إن اعتدى إنسان على الحكم واصطاد؟

«ومن قتله منكم متعمداً». لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ألحق قتل الخطأ بالعمد، وذلك حتى يتنبه كل مسلم إلى كل فعل وهو محرم، أو وهو فى البيت الحرام.

هب أنك أردت أن تحك جلد رأسك بأظافرك وأنت محرم، هنا قد يتساقط بعض

شعرك ؛ فإن ثبت ذلك فعليك هدى للكعبة أو صوم أو إطعام مساكين ؛ لأن الحق يريد لك حين تحرم أن تنتبه بكل جوارحك إلى أن كل حركة من حركاتك محفوظة ومحسوبة عليك ، ولتكن فى منتهى اليقظة الإيمانية ، وأى خطأ مهما يكن يسيراً يوجب الفدية . لذلك من قتل وجب عليه الجزاء لتعديه على شىء حرمه الله . والجزاء محدد بنص القول الحق : « فجزاءٌ مثل ما قتل من النعم » وعند المثلية وقف العلماء أيضاً : أتكون المثلية بالقيمة ، أو المثلية فى الشكل ؟.

والمثلية فى القيمة تعنى أن تقوِّم الشىء المقتول بثمنه ، وتشترى بالثمن شيئاً من الأنعام وتذبحها . والمثلية فى الشكل تعنى أن نشبه الشىء المقتول بمثيل له مما يذبح ويكون أقرب إلى شكله . ودليل ذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم حينما قتل مسلم ضبعاً أمر المسلم أن يفدى بكبش . والصحابة رضوان الله عليهم : على ، عمر ، وعثمان وعبدالله بن عمر أمروا رجلاً قتل نعامة أن يفديها ببدنة:ناقة أو بعير لأنها تشابه النعامة فى العلو . وحينما قتل إنسان ظبياً فداه بشاة ، والظبى أو الغزال هو الذكر ، والغزالة هى الأنثى ، وعندما قتل غزالاً صدر الحكم بالفداء بعنزة . ومن قتل « يربوعاً » - وهو من الزواحف وأكبر من الفأر قليلاً - صدر الحكم أن تكون الفدية « الجفرة » وهى ولد الماعز بعد أن يستغنى عن لبن أمه ويستطيع الأكل .

إذن ، فالمثلية هنا مثلية الشكل . وقال أبو حنيفة بإباحة أن تكون المثلية بالقيمة إن لم يوجد الشبيه . وعلى ذلك فالذى يصطاد من أجل أن يطعم نفسه يدفع ثمن الخطأ لغيره من المحتاجين . وإن كانت المثلية بالقيمة فالذى يحدد هذه القيمة أناس لهم بصيرة وهما اثنان من ذوى العدل . « يحكم به ذوا عدل منكم هدياً بالغ الكعبة » وهم الذين لا يميلون عن الحق ، ويقيمون الميزان .

ويأمرنا الحق أن نحكم بالإنصاف لنكون من ذوى العدل ، أى أن الإنسان حين يواجه خصمين فهو يعطى نصفه لخصم ونصفه الآخر للخصم الثانى ، فلا يميل بالهوى ناحية أحدهما . ولا يدير الإنسان وجهه إلى خصم أكثر مما يديره للآخر .

وإن سأل أحد : كيف نأتى بذوى العدل ؟ ونقول : انظر إلى عدالتهما فى نفسيهما ولنر تصرفات الإنسان هل هى مستقيمة أو لا ؟ وهل هو مسرف أو معتدل سواء فى

الطعام أو الغضب أو فى أى لون من ألوان السلوك؟ ومن كان مأموناً على نفسه فهو مأمون على غيره ، ويجب كذلك أن يكون من ذوى الخبرة فى هذا الأمر ، ولذلك يجب أن ينتبه الناس إلى هذه المسائل لأننا نرى أن موجة من النفاق للشباب تسود بعض المجتمعات ، فنسمع أصواتاً تقول : إن الشباب يجب أن يتولى القيادة .

ونقول لأصحاب هذه الأصوات : تمهلوا ودققوا النظر فى مثل هذا القول ؛ لأن الشباب عليه أن يزاول عمله الخاص فى فترة الشباب ، وعلينا ملاحظته وهو يؤدى عمله فإن نجح ورأينا فيه أمانة على حركة نفسه ، وعدلاً مع نفسه وعدم إسراف على نفسه فإننا نرشحه من بعد ذلك ليخدم أمته بعد أن يثبت أنه مأمون فى عدالة نفسه . ولا يصح أن نجرب فى الأمة مَن لا يستند إلى رصيد من الخبرة السابقة .

إنه لا يصح أن نولى الأمر فى أى قطاع لمن أطلقوا عليهم : الأطفال المعجزة . ومن يريد أن يجرب فليجرب فى نفسه ، وفيما يملك ، لا فى الأمم والشعوب . وعلى الشاب أن يبدأ حياته بنشاط جدى لذاته ، ليستخلص النفعية القريبة منه وألا يغش نفسه ، فإن نجح فى ذلك ، نأخذ منه بعض الوقت أو كل الوقت لخدمة أمته بعد أن يثبت لنا أنه قد وصل إلى النضج العقلى الكافى ، وقد زادت تجاربه وفقد شهية الطموح الشخصى والمتع الصغيرة ، ووصل إلى القدرة على التجرد ليحكم بين الناس .

فإذا كان الحق قد أمرنا أن نختار ذوى العدل للحكم فى رقبة شاة ، فما بالنا برقاب الناس ومصالح الناس ؟

نحن - إذن - مطالبون بأن نميز ذوى العدل بين الناس من خلال مراقبة حركة الإنسان مع نفسه وعلى نفسه وعلى أهله ، وعندما نكتشف أنه صار مأموناً على نفسه ، هنا نستطيع أن نوليه أمور غيره بالخدمة العامة ، وذلك حتى لا تخيب الأمة ، فالأمم إنما تخيب باختيارٍ غير مدروس لقيادات المواقع المختلفة فيها .

ولنا أن نلحظ فى عملنا دقة المعانى التى جاءت فى القرآن الكريم ، فنحن هنا فى أمر شاة أو حيوان نستصدر الحكم من ذوى العدل . « فجزاء مثل ما قتل من النعم

يحكم به ذوا عدل منكم هدياً بالغ الكعبة » وما يحكم به ذوا العدل إنما يذهب كله للكعبة ؛ ليأكله الموجودون فى البيت الحرام لعبادة الرحمن . وقد أراد الله أن يضمن قوت الذين يسكنون وادياً غير ذى زرع حتى من أغلاط الذين يعتدون على ما حرّم الله صيده من الحيوان .

ولكن ما الحل إذا ما كان المخطىء لا يملك القدرة على أن يقدم هدياً بالغ الكعبة ؟

والحق سبحانه لا يترك مثل هذه الأمور دون بيان أو تفصيل ، فهاهوذا يضع الكفارة بإطعام مساكين ، يحدد عددهم الاثنان من ذوى العدل . ومن لا يستطيع إطعام مساكين فليصم أياماً بعدد الفقراء الذين كانوا يستحقون الطعام لو أخرجه . « أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياماً ليذوق وبال أمره » والوبال هو الثقل والعاقبة .

ولماذا الوبال ؟ لأن الإنسان حين يدفع من ماله ثمن شراء المثل لما قتل سيعز عليه ماله ، وأيضاً إن أطعم مساكين فهو سيشترى الطعام بمال يعز عليه ، وكذلك يسبب له الصيام الإرهاق . إن هذا اللون من الكفارة يذيق الإنسان وبال ما فعل . وأراد الحق بذلك ألا يجعل الإحساس مجرد أمر شكلى ، أو أن تظل الإساءة أمراً شكلياً . وشاء سبحانه أن يرتب النفع للإحسان والضر للإساءة ، حتى تستقيم الأمور فى الكون . ولنا فى قصة ذى القرنين المثل الواضح على ذلك :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ ﴾

( سورة الكهف )

لقد مكن الحق لذى القرنين فى الأرض ، وأعطاه من كل شىء سببا . ومع ذلك لم يركن ذو القرنين إلى ما أعطى فلم يتقاعس ولم يكسل ، بل يخبرنا الحق :

﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ ﴾

( سورة الكهف )

لقد أخذ ذو القرنين من تمكين الله له فى الأرض، وأخذ من عطاء الله له بشىء من كل سبب ، إنه أخذ طاقة وإحساساً بالمسئولية ليواصل مهمته :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦) ﴾ [سورة الكهف]

لقد بلغ مغرب الشمس فى نظر عينيه، لأن الإنسان عندما يقف وقت الغروب فى خلاء فالشمس تغرب أمامه وكأنها تسقط فى آخر الأفق . والحقيقة أن ذلك هو نهاية قدرة البصر . وجاء التفويض لذى القرنين : إما أن يعذب هؤلاء القوم، وإما أن يعاملهم بالحسنى . وليقس عمل كل إنسان منهم، وليجاز كل إنسان منهم حسب عمله. وهو لا يفعل ذلك عن هوى، لأنه ممكن فى الأرض من الحق سبحانه وتعالى؛ لذلك قال الحق :

﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧) ﴾ (سورة الكهف)

وكل إنسان - حتى النفعى - حين يرى أن ارتكاب العمل السىء يأتى له بالمتاعب والخسارة، يرجع عنه ولو لم يكن مؤمناً باليوم الآخر . أما من يؤمن باليوم الآخر ويعمل عملاً صالحاً فماذا تكون نوعية معاملته ؟ ها هو ذا الحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨) ﴾
(سورة الكهف)

إنه ينال التكريم والتشجيع، فالتكريم والتشجيع يجب أن ينالهما صاحب الحق فيهما لا المنافق أو المتمسح بالأبواب . هكذا يكون دستور كل متمكن فى الأرض. وهكذا تكون رعاية أوامر الله ونواهيه . وحين أمرنا الحق بتحريم الصيد فى البيت الحرام أو على المحرم ووضع عقوبة لمن أخطأ، فهو سبحانه وتعالى عادل معنا، فلا عقوبة إلا بنص ولا تجريم إلا بعد النص، ولذلك قال سبحانه : « عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام » . فسبحانه يعفو عما سلف، أما من عاد ليرتكب نواهى الله فى هذا المجال فيعاقبه الحق . فلا يقبل منه هدى

ولا إطعام مساكين ولا صوم ؛ لأن في تكرار المخالفة إصراراً عليها ، لذلك ينتقم منه الله ، وهو العزيز الذى لا يُغْلَب .

وبعد أن تكلم الحق عن صيد البر وحكمه ، أراد أن يوضح لنا أن ذلك الحكم لا ينسحب على كل صيد . فسبحانه حرم صيد البر إن كنا حرماً ، أو في دائرة الحرم . ويجيء قول الحق :

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

وهذا قول دقيق يبين تحليل صيد البحر وطعامه ، وتحريم صيد البر على المحرم كما حرمّ الصيد في دائرة الحرم على المحرم وغير المحرم ؛ لأن المسألة ليست رتابة حِل ، ولا رتابة حُرمة ، إنما هى خروج عن مراد النفس إلى مراد الله . وصيد البحر هو ما نأخذه بالحيل ونأكله طرياً ، وطعام البحر هو ما يعد ليكون طعاماً بأن نملحه ولذلك قال : « متاعاً لكم وللسيارة » . ولهذا جاء الحق بطعام البحر معطوفاً على صيد البحر . والشيء لا يعطف على نفسه ، فإذا ما جاء العطف فهو عطف شيء على شيء آخر ، فالعطف يقتضى المغايرة .

إذن فالمقيم يأكل السمك الطرى والذى في سيارة ورحلة فليأخذ السمك ويجففه ويملحه طعاماً له ، مثلما فعل سيدنا موسى مع الحوت . ولكنْ هناك ألوان من الصيد ليست للأكل ، كاللؤلؤ والمرّجان والحيوانات التى نستخرجها من البحر لعظامها وأسنانها وخلاف ذلك ، فماذا يكون الموقف ؟ لقد أباح لنا سبحانه الاستمتاع بكل صيد البحر . وجاء هذا التحليل هنا بأسلوب اللف والنشر ، مثلما قال الحق :

﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ (٧٣) ﴾

(من الآية ٧٣ سورة القصص)

وكلنا يعرف أن الليل للراحة والنهار للتعب . والليل يسلم للنهار، والنهار يسلم لليل . إذن فالمسكن يعود إلى الليل، وابتغاء الفضل بالكد يعود إلى النهار . إذن فقد جاء الحكم على طريق اللف والنشر المرتب، وأوضحت من قبل كيف أن الشاعر العربى قد فعل ذلك فقال :

قلبى وجفنى واللسان وخالقى ... راضٍ وباكٍ شاكرٌ وغفورُ

فالقلب راضٍ، والجفن باكٍ، واللسان شاكر، والخالق غفور، ولكن الشاعر جاء بالأحكام منشورة بعد أن لف الكلمات الأربع الأولى . أى أنه طوى المحكوم عليه مع بعضه ثم نشر الأحكام من بعد ذلك . وفى حياتنا ـ فى أثناء السفر ـ نشترى الهدايا للأبناء ونرتبها حسب ورود الأبناء إلى حياتنا، أى أننا نلف الهدايا ثم ننشرها من بعد ذلك . وبعد أن حلل الحق صيد البحر جاء بتحريم صيد البر إن كنا حُرُماً، وذلك تأكيد جديد على تحريم صيد البر فى أثناء الإحرام أو الوجود فى الحرم .

ويذيل الحق الآية بقوله : « واتقوا الله الذى إليه تحشرون » أى اجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية ؛ لأنكم لستم بقادرين على تحمل عذاب النار، فالحق ـ كما قلنا من قبل ـ له صفات جمال، وهى التى تأتى بما ييسر وينفع كالبسط، والمغفرة والرحمة، وله سبحانه وتعالى صفات القهر مثل : الجبار وشديد العقاب وغيرها . وكل صفة من صفات الحق لها مطلوب . فعندما يذنب الإنسان فالتجلى فى صفات الله يكون لصفات الجلال، ومن جنود صفات الجلال النار .

إذن فإياكم أن تظنوا أنكم انفلتم من الله، فمساحة الحرية الممنوحة لكل إنسان تقع فى المسافة بين قوسين : قوس الميلاد، وقوس الموت، فلا أحد يتحكم فى ميلاده أو وفاته . إياك ـ إذن ـ أيها الإنسان أن تقع أسير الغرور ؛ لأنك مختار فيهم بين القوسين . ومحكوم بقهرين، قهر أنه قد خلقك بدءاً، وقهر أنك ستعود إليه ـ سبحانه وتعالى ـ نهاية .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ﴾

« جعل » تعنى بَيَّنَ ووضَّح ، فقال:إن الكعبة محرمة ولها كرامة تستحق من المؤمن أن يأمن فيها . أو « جعل » تعنى إيجاد صفات للأشياء بعد أن تكون ذات المادة موجودة ، مثل قوله الحق سبحانه :

﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

(من الآية ٧ سورة النحل)

أى أنه سبحانه خصص جزءا من خلايا الإنسان ليكون عيناً ، وجزءا آخر ليكون أذناً ، وجزءا ثالثاً ليكون لساناً . والحق هنا يقول : « جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس » . ونعرف أن كل الأسماء للمعنويات مأخوذة من المُحسات .

والكعب هو الشيء الناتىء الخارج عن حد المتساوى . ومثال ذلك الكعب فى القدم يكون مرتفعاً . وكذلك الفتاة نطلق عليها : « طفلة » وهى دون البلوغ ، وعند البلوغ وظهور الثديين نقول إنها : «كَعَاب وكاعب » ، أى أن ثدييها قد صارا مرتفعين ، والكعبة نتوء ، والنتوء ارتفاع ، وهذا الارتفاع هو علامة البيت ، فالبيت هو مساحة من الأرض ، أما الارتفاع فهو يحدد الحجم .

ومثال ذلك عندما نريد حساب مساحة الأرض ؛ نقيس الطول والعرض ، ونضرب الطول فى العرض حتى نحسب المساحة . أما إذا كان هناك ارتفاع فهذا يعنى الانتقال من المساحة إلى الحجم . والحق سبحانه يقول :

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ ﴾

(من الآية ١٢٧ سورة البقرة)

أى أن سيدنا إبراهيم بعمله إنما أراد أن يصنع للبيت ارتفاعاً وحجماً ، وهذا البناء يدل على صناعة حجم لمساحة من الأرض . إذن فالكعبة هى البيت بعد أن صار له ارتفاع . وكلمة « بيت » تعنى المكان الذى أعد للبيتوتة ، فالإنسان يضرب فى الأرض طيلة نهاره وعندما يجب أن يستريح يذهب إلى البيت .

فالله جعل الكعبة بيتاً للناس حتى يستريحوا فيه من عناء حياتهم ومشقة كدحهم لأنه بيت ربهم باختيار ربهم ، لا باختيارهم ، فكل مسجد هو بيت لله ولكن باختيار خلق الله ، أما الكعبة فهى بيت الله باختيار الله ، وهى قبلة لبيوت الله التى قامت باختيار خلق الله .

« جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس » وكلمة « البيت الحرام » تدل على أن له حرمات كثيرة . وجعل الله الكعبة بيتاً حراماً لكل المسلمين قياماً . والقيام هو الوقوف ، والوقوف هو القيام على الأمر . والقائم على أمرٍ ما يحفظ له قوام حياته ووجوده .

وهكذا نفهم أنه سبحانه أراد أن تكون الكعبة هى البيت الحرام ليحفظ على الناس قوام حياتهم ، بالطعام والشراب واستبقاء النسل ودفع الأذى ، وفوق ذلك له سيطرة وسيادة وجاه وتمكين ، ولذلك يعطى الإيمان الحياة الراقية ، فالحياة مسألة يشترك فيها المؤمن والكافر ، وتبدأ بوجود الروح فى المادة فتنتقل المادة إلى حالة الحس والحركة ، والمؤمن هو من يرتقى بحياته فيعطى لها بالإيمان منافع ، ويسلب عنها المضار ، فيأخذ السيادة ، وبذلك تتصل حياته الدنيا بحياته فى الآخرة ، فلا تنتهى منه الحياة أبداً .

لقد جعل الحق سبحانه وتعالى الكعبة البيت الحرام قياماً للناس . . أى قواماً لحياتهم سواءً الحياة الدنيا أو حياة الآخرة ، الحياة المادية التى تنتهى بالموت ، والحياة التى تبدأ بالآخرة . والحق سبحانه يقول عن ذلك :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأنفال)

هكذا يكون الإيمان بالله وصلاً لحياتين : الحياة المادية فى الدنيا ، وحياة الآخرة . وأراد الحق بذلك دفع الأذى وجلب النفع والجاه والسيطرة للمؤمنين ، ونعرف أن البيت الحرام هو أول بيت وضع للناس :

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾

( سورة آل عمران )

كذلك نعرف أن إبراهيم عليه السلام هو الذى أقام القواعد من البيت ، أما البيت نفسه فقد أقيم من قبل ذلك . ومادام الحق سبحانه قد قال :

﴿ وُضِعَ لِلنَّاسِ ﴾

( من الآية ٩٦ سورة آل عمران )

فمعنى ذلك أن الله لم يحرم الناس من قبل إبراهيم أن يكون لهم بيت . فالناس معناها البشر من آدم إلى أن تقوم الساعة ، وأقام إبراهيم خليل الرحمن البُعْد الثالث وهو رفع القواعد للبيت الحرام . والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ ﴾

( من الآية ٢٦ سورة الحج )

أى أن الحق سبحانه وتعالى أظهر مكان البيت لإبراهيم عليه السلام ، ونعرف أن إبراهيم أشرك ابنه إسماعيل فى إقامة القواعد من البيت ، ونعلم أن إسماعيل قد جاء إلى هذا المكان رضيعاً مع أمه ، وقال إبراهيم بعد أن رفع القواعد متوجها إلى ربه بالدعاء :

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ ﴾

( من الآية ٣٧ سورة إبراهيم )

لقد عرف إبراهيم مكان البيت وأنه بوادٍ غير ذى زرع ، لا ماء فيه ولا نبات . وجاء الحق بهذه الكناية لنعرف أنه لا حياة بدون زرع ، والماء لازم للزرع . وبذلك يكون إبراهيم عليه السلام قد لبى نداء الله بأن يأتى إلى مكان ليس به أى نعمة تقيم الحياة ، ولا يوجد فيه إلا المنعم ، ولذلك نرى سيدتنا هاجر عليها السلام عندما تتلقى الأمر من إبراهيم بالسكن مع ابنها فى ذلك المكان تناديه : يا إبراهيم إلى من تركتنا ؟ فيقول

لها : إلى الله تقول : رضيت بالله . هنا تركته سيدتنا هاجر ليمشى كما أراد، فالله لن يضيعها لا هى ولا ابنها ؛ لأنها قالت : رضيت بالله .

وقص رسول الله - صلى الله عليه وسلم - علينا قصتها، والسعى الذى قامت به بين الصفا والمروة، وكيف كانت ثقتها فى أن الخالق الأكرم لن يضيعها لا هى ولا ابنها، بل سيرزقهما، فتسعى بين الصفا والمروة لعلها تجد طيراً يدلها على موقع للماء، وتعود إلى المروة لعلها تجد قافلة تسير . إنها تأخذ بالأسباب مع علمها أنها فى صحبة المسبب الأعظم . وسعت سبعة أشواط . وهى الأنثى وفى تلك السن، وذلك من لهفتها على توفير شربة ماء لطفلها .

السعى - كما نعرفه - عملية شاقة . ولو أن الله أعطاها الماء على الصفا أو على المروة لما أثبت كلمتها : « إن الله لا يضيعنا » . ولكن الحق يعطيها الماء عند قدمى طفلها الرضيع . وبذلك لها يكون سبحانه قد نبهنا وأرشدنا إلى قضيتين : أما الأولى فإن الإنسان يلزمه أن يسعى على قدر جهده، وأما الثانية فهى أن السعى لا يعطى بمفرده الثمرة، ولكن الثمرة يعطيها الله . وجعل الله من السعى بين الصفا والمروة تعليماً لنا بدرس عملى تطبيقى أن نأخذ بالأسباب ولا ننسى المسبب ؛ لأن فتنة الناس تأتى من الغرور بالأسباب .

﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝٧ ﴾ (سورة العلق)

إنه لا يصح أبداً أن تعزلك الأسباب عن المسبب، ولا تقل سأبقى مع المسبب إلى أن تأتينى الأسباب، لا ، كُنْ دائماً مع الأسباب، وتذكر دائماً المسبب . ولذلك نقول: إن الجوارح تعمل، ولكن القلوب تتوكل . وهذا هو المغزى من عطاء الحق سبحانه الماء لهاجر عند قدمى ابنها، وبذلك تستجاب دعوة إبراهيم التى دعا بها الله :

﴿ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ۝٣٧ ﴾ (سورة إبراهيم)

لقد دعا إبراهيم عليه السلام بالرزق من الثمرات ، لأن الوادى غير ذى زرع . ولذلك جعل الحق أفئدة الناس تهوى إلى الكعبة وإلى البيت الحرام . يقول ـ سبحانه ـ :

﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا ﴾

(من الآية ٥٧ سورة القصص)

وكلمة « يُجبى » تدلنا على أن الناس لا تأتى بهذه الثمرات اختياراً إلى البيت الحرام الذى جعله الله قياماً لحياة من يوجد فيه ، بل يأتون بالثمرات قهراً .

وهناك أناس لهم مزارع كبيرة وحدائق وفيرة الثمار فى الطائف وفى غيرها من البلاد ، وعندما يريد إنسان الشراء من نِتاج مزارعهم يقولون له : إنه مخصص لمكة فإن أردت شراءه فاذهب إلى مكة .

لقد استجاب الحق لدعاء إبراهيم : ( فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ) . و« تهوِى » ـ بكسر الواو ـ تدل على السقوط من حالق . . أى من مكان مرتفع شاهق . وكأن الشوق إلى الكعبة يجعل الإنسان مقذوفاً إليها . ولذلك نجد الكَلِف بالحج ـ المحب له والمتعلق به ـ تشتاق روحه إلى الحج .

وعلينا أن نفرق بين « يَهْوَى » . . أى يحب الذهاب ، و« يَهوِى » بكسر الواو أى يذهب بالاندفاع ، فالإنسان إن سقط من مكان عالٍ لا يستطيع أن يقول : سأتوقف عند نقطةٍ ما فى منتصف مسافة السقوط ؛ لأن الذى يقع من مكان لا يقدر على أن يمسك نفسه . ولذلك قال الحق :

﴿ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة إبراهيم)

وهذا دليل على أن الْهوَىٰ ليس من صنعة الجسم ، ولكنه من صنعة الأفئدة . والأفئدة بيد الله ـ سبحانه ـ هو الذى جعلها تهوِى ، والكعبة هى البيت الحرام ، وهى قوام لحياة الناس ، وسبحانه القائل :

﴿ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾

( من الآية ٩٧ سورة آل عمران )

فالداخل إلى الكعبة آمن حتى ولو كان قاتلاً . وكان الرجل يلتقى بقاتل أبيه فى الكعبة فلا يتعرض له ، إذن فقد أعطى الحق لهم من مقومات الحياة الشىء النافع وحجب عن الموجود منهم الضر .

وأما السيادة والجاه فقد عرفنا أن قريشاً سادت العرب وكان رجالها سدنة وخدماً لبيت الله ، والكل يأتى إليهم فلا أحد يتعرض لقوافلهم الذاهبة إلى الشام أو اليمن . وإلا فمن يتعرض لقوافل قريش فإن قريشاً تستطيع الانتقام منه عندما يأتى إليها . وكان ذلك قمة السيادة . إذن فمقوم الحياة إما أن يأتى بنافع كالرزق ، وإما أن يمنع الضار ؛ وذلك بالأمن الذى يصيب كل داخل إليها ، وكذلك بالسيادة التى أخذتها قريش على العرب جميعاً . وأعطى الله المثل لقريش على حمايته للكعبة ، عندما جاء أبرهة ليهدم الكعبة :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ ﴾

( سورة الفيل )

ورد سبحانه كيد أصحاب الفيل ؛ لأنهم لو هدموا الكعبة لضاعت السيادة من قريش ، ولذلك قال الحق وصفاً لذلك :

﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ۝٥ ﴾ ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ ﴾

( الآية ٥ سورة الفيل والآية ١ ، ٢ سورة قريش )

جعل الحق أصحاب الفيل كعصف مأكول أى كتبن أو نحوه أكلته الدواب وألقته رَوْثاً ، فعل ـ سبحانه ـ ذلك حتى تألف قريش وتطمئن إلى أن الكعبة لن يمسها سوء ، وإلى أن رحلات الشتاء والصيف مصونة بحكم حاجة كل القبائل إلى الحج . وقال سبحانه :

﴿ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤ ﴾

( سورة قريش )

أى أسبغ عليهم النعمة بالطعام وسلبهم المضرة بالخوف ، وأبقى لهم السيادة والجاه بخدمة الكعبة التى جعلها الله للناس جميعاً قياما وأمناً ؛ لأن الذين يذهبون إلى حج البيت يُكفر عنهم سبحانه سيئاتهم ويخرجون من الذنوب كيوم ولدتهم أمهاتهم ، وهذا قيام لحياتهم الأخروية أيضاً .

إذن جعل الله البيت الحرام قياماً لكل ألوان الحياة ، والبيت الحرام مكان كما نعلم . وجعل الحق الشهر الحرام أيضاً قياماً للحياة ، والشهر الحرام هو زمان كما نعلم . والشهر الحرام هو أحد الأشهر الحرم الأربعة ؛ شهر منها فرد أى غير متصل بغيره من الأشهر الحرم وهو رجب ـ ولذلك يسمى رجب الفرد ـ وثلاثة سرد أى متتابعة يلى بعضها بعضا وهى : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم . والمراد بالشهر الحرام هو الجنس لكل شهر من الأشهر الحرم .

ونعلم أن كل حدث من الأحداث يحتاج إلى فاعل . والفاعل يحتاج إلى زمن ليفعل فيه الفعل ، وإلى مكان يفعل فيه ، وإلى سبب يدعو إلى الفعل ، وإلى قدرة تبرز هذا الفعل . ولذلك نذكر جميعاً قول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾

( سورة الكهف )

فإياك أن تقول : إنى فاعل ذلك غداً إلا بعد أن تتبعها بقولك : « إن شاء الله » . ولا يمنعنا هذا أن نخطط لمستقبلنا . فمادمنا قد استعنا بالمشيئة ، فلنا أن نخطط لحياتنا . ونقول : « إن شاء الله » لأن عناصر الفعل : فاعل ، ومفعول يقع عليه الفعل ، وزمان ، ومكان ، وسبب ، وقدرة تبرز الفعل . ولا أحد منا يملك واحداً من هذه العناصر ، فأنت أيها الإنسان لا تملك وجود ذاتك غداً ، ولا تملك وجود المفعول غداً ، ولا تملك الزمان ، ولا تملك المكان ، ولا تملك السبب ؛ لأنه من الجائز أن يتغير ، ولا تملك القدرة على الفعل ، فقد تسلب منك القدرة قبل أن تفعل الفعل .

إذن ، فأنت لا تملك من عناصر الفعل شيئاً . فلا تجازف وتقول : أنا أفعل ذلك غداً . بل أسندها إلى من يملك كل العناصر ، وقل : « إن شاء الله » ، وبذلك لا تكون كاذباً .

وهنا في هذه الآية يوجد عنصران : المكان ، الزمان ، المكان هو البيت الحرام ، والزمان هو الشهر الحرام ، والذي يحدث الفعل فيه نسميه : المفعول فيه ، وهو إما ظرف مكان وإما ظرف زمان . وأراد الحق سبحانه بذلك أن يؤكد ما فيه قيام الناس زمانا ومكانا ، فلو أنه سبحانه لم يفعل ذلك بالنسبة للزمان وهو الأشهر الحرم ، والمكان وهو الحرم ، لاستمرت الحرب بين قبائل العرب إلى ما لا نهاية . ولذلك أراد بالأشهر الحرم أن يعطي للعقل فرصة للتأمل في أسباب الحرب ، ويعطي كل إنسان من العرب الراحة من القتال . وكان كل عربي في ذلك الزمن يهتم بالاستعداد للقتال اهتمامه بالطعام والشراب ، فكل منهم تربى على الفروسية والقتال والضرب بالرمح والمبارزة بالسيف .

وحينما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم لينساح بالدعوة في أرض الله صحب معه الكثير من الرجال الذين لم يكونوا في حاجة إلى التدريب على أعمال الحرب ، فقد كان كل الناس تقريباً جاهزين للقتال . وكأن الله سبحانه أراد للإسلام أن ينهي الثأر بين القبائل ، وأن يستفيد الإسلام من استعداد كل عربي للقتال . واستفاد الإسلام أيضاً من أن أمة العرب كانت ـ غالباً ـ متبدية ؛ بيت كل إنسان منهم على ظهر البعير ، يشد رحاله ، وينصب خيمته وينام ؛ لأن الناس إنما ارتبطوا بالأوطان عندما بنوا المنازل ، فمن بنى لنفسه بيتاً في مكان ما فهو يشتاق إلى ما بناه .

وكأن الحق قد أعدهم للانسياح بكلمة الله في الأرض فلا يحزن لترك مكان إلى مكان آخر ، بل إن الشخص منهم كان يذهب إلى البلاد ويتوطن فيها ليؤصل الوجود الإسلامي . فكان كل واحد منهم نواة الخير للأمم التي انساحوا إليها ؛ فمن ذهب منهم إلى الشام توطن فيها ولم يصعب عليه فراق الجزيرة . وكذلك من ذهب إلى مصر وغيرها من البلدان .

إذن فقد أراد الحق بحرمة الأشهر الحرم والبيت الحرام أن يرتاح العرب من القتال بدلاً من أن تهلك الحربُ الحرثَ والنسلَ ، وأراد الحق ذلك قياماً للناس ، واستبقاءً للنوع .

وكذلك حرم الله : « الهدى والقلائد » والهدى هو الذي يُهْدَى للحرم فيأكله

الناس هناك ، ذلك لأن الحرم موجود بوادٍ غير ذى زرع . والهدى هو البهيمة التى يتطوع بها أى إنسان ويضع حول عنقها قلادة من لِحاء وقشر الشجر أو غير ذلك ، وعندما يرى الناس القلادة يعرفون أن تلك البهيمة مهداة للحرم فلا يقربها أحد حتى صاحبها وإن قرصه وعضه الجوع ، وفى ذلك قيام للناس .

وتتابع الآية : « ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض وأن الله بكل شىء عليم » ، و« ذلك » تشير إلى الأمور التى تقدمت كلها ، و« لتعلموا أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض » أى أنه مدبر لهم ما يحفظ حياتهم فى كل حال من أغيار الحياة ؛ فقد رتب سبحانه لهم حفظ الأرواح ، وحفظهم من الجوع ، وآمنهم ، وحفظ لهم السيادة ، كل ذلك بتدبيره وهو الحكيم . لقد دبر كل شىء أزلاً ، وأتت الأمور على وَفْق ما دبر من خير ومصلحة ، فإذا كان كل ذلك قد فعله سبحانه وتعالى فلأنه الأعلم والأحكم .

وقد حدث كل ذلك بعلمه وحكمته ، ونؤمن أن ما لا نعرفه قد فعله وصنعه - أيضاً - بهذه الحكمة المطلقة وذلك العلم المطلق . « ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض وأن الله بكل شىء عليم » لقد رتب حياة الناس فى الجزيرة وحول البيت الحرام على الرغم من أنهم قبل الرسالة كانوا يعبدون الأصنام ، ولكنه هداهم بالرسالة المحمدية . ولذلك قال : « اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم » فسبحانه جعل البيت أمنا وأماناً ، وهذا إخبار شرعى لا إخبار كونى .

والفرق بين الإخبار الكونى والإخبار الشرعى أن الإخبار الكونى لا بد أن يحدث لأنه لا دخل للناس به ، أما الإخبار الشرعى فهو أمر يجب أن يقوم الناس بتنفيذه ، فإن أطاع الناس الخبر القادم من الله جعلوا البيت آمنا ، وإن أساءوا جعلوه غير آمن .

وفى زماننا القريب عندما اعتدى شاب يدعى جهيمان على الحرم ، تساءل الناس : كيف يعتدى إنسان على الحرم وقد أراده الله حرماً آمناً ؟ وقلنا : إن أمر الله بجعل البيت حرماً آمنا هو أمر شرعى ينفذه المؤمنون إن أطاعوا ، وإن لم ينفذوه فهم غير مؤمنين . والمثال على الأمر الشرعى والكونى قوله الحق :

﴿ وَالطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ ﴾ (من الآية ٢٦ سورة النور)

إننا نجد فى الحياة خبيثاً يتزوج امرأة طيبة ، ونجد طيباً يتزوج خبيثة . وهذا يثبت لنا أن قوله الحق : « والطيبات للطيبين » هو أمر شرعى بأن نزوج الطيب طيبة مثله ، وهو واجب التنفيذ إن كنا مؤمنين بالمنهج ، أما إن خالفنا المنهج فإننا نزوج الطيب خبيثة والطيبة خبيثاً ، وبذلك يختل التكافؤ فى الأسرة ، وتصير حياة المجتمع جحيماً ، ومن أجل أن نحفظ للمجتمع توازنه علينا أن نزوج الطيب للطيبة وأن نترك الخبيثة للخبيث ، حتى لا تكون حياتنا فى فتنة . وينبهنا سبحانه إلى ضرورة مراعاة أوامره الشرعية فيقول لنا سبحانه :

﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٨﴾ ﴾

أى تيقظوا لأحكام الله ، وكونوا طوع ما يريد ، فمن يخالف الله فعليه أن يعرف أنه سبحانه وتعالى شديد العقاب . ومن كان يطيع الله فليعلم أنه سبحانه غفور رحيم . وجاء سبحانه بصفة من صفات الجلال لتتقابل مع صفتين من صفات الجمال ، فصفة : « شديد العقاب » تتقابل مع صفتى : « غفور رحيم » ؛ لأن كل الناس ليسوا أخياراً ، وكل الناس ليسوا أشراراً ؛ لذلك جاء للأخيار بما يناسبهم من المغفرة والرحمة ، وجاء للأشرار بما يناسبهم من شدة العقاب ، وغلبت رحمته ومغفرته غضبه وعقابه ، ونلحظ ذلك من مجىء صفة واحدة من صفات الجلال : ( شديد العقاب ) ويقابلها صفتان من صفات الجمال وهما : ( غفور رحيم ) .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَٰغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾